حقارة الجريمة وحضارة الاستشهاد

بقلم: ليلى عسيران

الشهيد الاخ غسان كنفاني هو الفرق بين الموت والاستشهاد ! ففي الموت رهبة وخوف واستسلام للقدر . اما الاستشهاد ، فان ابعاد الحزن فيه تكاد توصلنا الى لمة عجيبة من لمات الفرح ، والى الشجاعة النابعة من قرار ، ومن مبادىء يعطيها المناضل كل طاقاته ، الى ان تصل ذروتها الممات نفسه.

والفرق بين الجريمة والثورة القائمة على الكفاح المسلح ، بناء على مبادىء وخط سياسي وعقيدة ، هو الفرق بين فلسطين الثورة وبين الصهيونية . فالصهيونية تعبر من خلال ممارساتها الممتدة عبر نصف قرن عن كل انواع الاجرام .

ولقد استشهد غسان ، لنرى كم هو مهم ان تتضح المعالم الانسانية الحضارية الخاصة بالثورة ، فالثورة قبل كل شيء فعل قائم من اجل الانسان . الانسان الذي يقاتل كي يمنع استمرار الاستغلال . وهكذا استشهد غسان لتبقى الارض .

ويوم استشهد غسان كان يعبر عن موقف متواصل من العطاء الثوري ، وكان يعلم ان هذا مصيره ، وما كان يود ان تنتهي اسامه الا هكذا . وانطلقت الالاف وراءه ، وكان ارض فلسطين وثورتها دخلت من خلال غسان الى قلوب والى وعي الالاف من العرب ومن الاحرار . وعادت الى ارضه ، خطوة من خطوانه سيل جارف من ارادة الكفاح المسلح .. ومن الحب .

وصاحب امه هكذا تزغرد ان ابنها الول لن يموت ابدا . وصور غسان الشهيد في الشوارع تتضح بحيوية الثورة ، لانه بغيابه بات يجسد عظمة الثورة التي لا تنضب . ولذلك عندما يموت انسان ، نحد ابتسامة بحزن ، وربما نصرخ ، وربما ننهار ، وفي النهاية نخر مستسلمين . بينما الاستشهاد يوقظنا ، وبل يدفع غير الملتزمين منا الى التفكر في معضلة الحياة بلا معنى والموت في سبيل معنى . ويتحول غير الملتزمين من سبات الاستسلام الى طاقة قد تفهمهاجيدا كل الثوار غير المزيفين ، ليملأوا ممات غسان بالحياة ، بالعمل ، بقرار الالتزام الذي رافقه الممارسة .

اما سلسلة الاجرام التي ارادها الصهاينة ذعرا وارتباكا ، فقد غذتنا تصميما على مواصلة المسيرة . وهنا يكمن فشل خطة العدو ، وحمايته الامبريالية .

واستشهاد غسان يعني ان صمود الجماهير المؤمنة بالكفاح المسلح ليس ناتجا عن جموحات عاطفية كما يحلو للعدو ان يصورها ، وانما على مقدرة الثورة الفلسطينية على النقل السمر ، وعلى ذروتها الحضارية في العطاء المبني على فكره .

واربعون غسان ليس مناسبة ندب ، بل قسما مجددا على مواصلة هذه المسيرة الحضارية . فالحضور الثوري الذي جسده غيابه يعني ان العطاء الثوري ليس عطاءا مهدورا مبعثرا ، بل محاولات بطولية في تخطي الايلول الاسود الذي حصد العمل الفدائي .

واستطاع غسان ان يعبر عن هذا التخطي، واضاف الى تجاربنا ، مرة اخرى تلك الخطوة التي ادت الى انفجار الثورة ، كي تظل مشعلا ، مشعلا .. حتى النصر. لقد اعطانا غسان حياته ، لنفهم العالم حضارة الجريمة ، وحضارة الاستشهاد .

لقد نكبناه صديقا واخا وقائدا ، وكاتبا، ولم نجف دموعا ، ولم نحول حزننا ، الا لاننا خلفنا ووراءنا الاف الشهداء ، وفي مستقبلنا المزيد من الشهداء .

فلنقدس الشهادة ، باستمرار شرر اسلافنا العرب ، وجماهيرنا الى صاحت وراء غسان بعظمة الثورة ، العظمة التي ستجعلنا نحول اربعين غسان الى مستقبل في مثل بطولة استشهاده .

صوت الثائر... بندقية

وردتنا من مدينة الثورة في بغداد قصيدة من الشعر الشعبي العراقي بتوقيع (قريب اخوان) يعبر فيها عن مشاعره ازاء استشهاد الرفيق غسان كنفاني ، مع رسالة يعزي فيها اسرة التحرير .

الى من عانق البندقية
الى شهيد الثورة الفلسطينية
غسان كنفاني

الهدف تنعيك ..
الصور تحييك ..
كل حرف انكتب بسمك يظل يبچيك
غزال البر هليذكر حلاة البيك
الشجر يبچي ...
النهر يحچي ...
النجوم تنوح ..
الكمر زعلان ما يضوي
الليالي اتهلهل بصوتك
العدو مذهول من موتك
بنادق طرزت اسمك ذچر للموت
جرايد خطت بقلمك محاچي سنين بعالي الصوت
مضايف شوك الك ونت ..
محاچي اهواي الك غنت ..
رجال الشمس هلفنت ..
يا بسمه بحلاةالموت علىاشفافك ورد رسمت
صواوين اليتامى اهناك
عد فركاك .. ثوب احزانها لبست
ملايين النفوس اوياك ... جزاهـا شوكك وحزنت
الك بيهم ذچر ما مات ..
الك رمز النضال الفات ..
وحچاية بنادقنه ،
الهاي هيه ..
الك (عايد الحيفا) .. انتشر طاريه
انا القادم جشره امرار .. تكول وشنهي التيه
يا مدفع قصيده اليك .. ذچر (غسان) وتلطع
يا من الرجال تكول .. بنادقنه تظل تلمع
يا صوت العرف دنيه .. شرار الثورة بيك اسطع
لعد (ياسين) بدروبك نضال اهناك
ومطار (اللد) متلهف لعد ملكاك
انشده بصوتك اشسوه ..!!
انشدنه للچر صوتك ..
اندبنه بعد موتك ..
على ادروبك رسمنه اليك ..
على اجدامك بظل شاطيك ....
ونوسمه....
ونرسمك سفينة نوح بشراع النصر يسمي
ونحط (فايز وليلى) صدر سكانها ونرسي
ما نبچي ..
ما نشچي ..
يظل طوالك رايه النه ..
يظل بيرغ سمانه ايرف .. وبكلوب العدو حسره

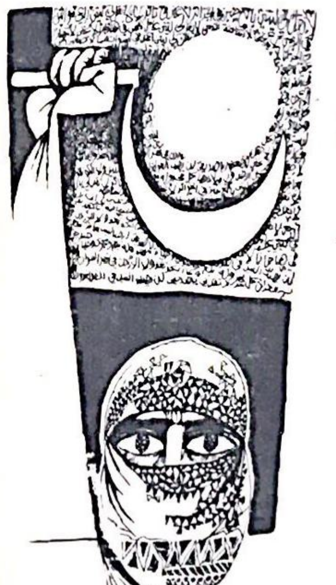

هنيالك شهيد الموت ... هنيالك الف مره...
فخر بيك الشعب غنه
دم جروحك يظل حنه
يا حنه وحك لونك نظل ثوار
يا حنه وحك نبعك نرد الثار
يا نار القدس يا نار
وحك دم الشهيد المات.. يو للموت
.. يو تزهي بهلها الدار ..!؟
(غسان) بسواجي الروح الك تذكار
نشب النار
نعيد احرار
نحرك كل عرج صهيوني.. نمحي العار

***

يا ميت ... عدل صوتك
يا حي ... بذچر موتك
احتني اجفوني من الموت
ورفعلك صواري بذچر ...
يا فكري ..
يا اسمي ..
واكره موت ؟
واجبن موت ؟
وحن للموت !!!؟
وصوغلك رصاص امطرز بياقوت
وشعلك بحر نيران حدر الصوت
ويظل صوتك رمز منموت
يا صوت العداله المايهاب الموت
يا صوت العداله المايهاب الموت
(بغداد ٢ آب/٩٧٢)

بطاقة عزاء الى ام سعد

يكفي ...، ٢ ، ٢
غسان ما مات بباب الدار
ما انثرت اشلاؤه في الريح
غسان صار طائرا ،
ونجمه للصبح
اراه عبر جرح الليل ، في الظهيرة
مقاتلا يحمل حزن الارض
يرسم في ملامحي علامة للرفض
يكتب للعمال في دفاتر المصانع
قصيدة حمراء
فمزقي بطاقة العزاء
غسان ما مات على فراشه
ولا ادار ظهره لسروة النهار
لكنه مسافر يجيء في الانهار
يجيء ماء اخضرا ،
ودار . ■

العراق
عيسى حسن الياسري

"الأشجار تموت واقفة" كانت جملته المفضلة

٧٢/٧/٨ . استشهاد غسان كنفاني منسوفا بعربته وقطعة من يده على سطح المبنى المقابل ، وصحيفة تنشر صورة لاشلائه تبدو جانبا راسه . الصحيفة استساغت نشر الصورة رغم وحشيتها . للحظة نجفل ونستشنع : انهم يريدونه « مثلة » .

حين تلتصق الصورة بالعين يستبد بنا العناد ، في مواجهة القصد غير البريء للصحيفة ، نتقبل الصورة ونضع لها اطارها اللائق : هي « الصورة السائدة » التي كم رصعت معارض كفاح حركات تحرير الشعوب : راس ملقاة على العشب بنصف كتف وملامح الوجه ـ رغم التشويه ـ كريمة ومتيبدة وباسلة . نفس الوجه واللقطة مكررة من ارضنا ، ومن كل ركن من اركان الارض تكمن فيه الرجعية ـ المغلة والمتعبة ـ وتمتد اليه اصابع الاخطبوط الامبريالي الامريكي الصهيوني .

ورغم انهم ارادوها « مثلة » ، لاشاعة الرعب والتخاذل ـ الا ان مسيرة نضال الشعوب المتحدية حولتها ، رغم انوفهم « مثالا » ؛ وصارت « الصورة السائدة » : الراس الملقاة والجسد المتناثر المشوه : مؤشر الطريق لكي تستحق الرؤوس ان ترتفع بعزة فوق الاكتاف الكاملة : وليست الردد في التأكيد ان غسان كنفاني كان قد رأى صورته هذه مرارا قبل ان نراها نحن منشورة في الصحيفة « غير المذكورة » .

● ولم يكن لفلسطين ان تكرم ادباءها بجائزة تقديرية كبرى الا هكذا : ان ينسفوا في طريق تحريرها : ان يقطعوا او يذبحوا بعد ان صنعوا لها فنا : ثورة ومقاومة وعناقا مستمرا بين القول والفعل .

وكان لفلسطين ان تختار لجائزتها التقديرية الكبرى ، شبانا خضرا لا يمكن « لعثة » ان تنال منهم وطرها : وفاز غسان كنفاني بالجائزة الفائقة : فنانا متكاملا ! اديبا ورساما ونافخ شرر « ليصير السخط الشعبي حريقا كاملا » .

● ارض خصبة ومنهكة ومستذلة ، لكن عرقها الذي يزداد صلابة كلما انهالت عليه الضربات .

كانت المحاولات البدائية ، بعد ان « استذلت » الارض ، هي البحث بين طيات التربة عن العرق الحي القريب ، ذلك الذي جعلها رغم كل الاستذلال : غير ذليلة ، ورغم كل الانتهاك : نقية ، ومع كل الدماء المسفوحة : تخفق بالدم الفوار من قلب لا يناله عطب .

وهم يعرفون ان هذا « العرق » هو « ما بقي لنا » لكي نواصل ونتواصل و « ما بقي لهم » لكي ينتزعوه او ينتهوا .

وكان « القلم » في يد غسان كنفاني يقظا متاهبا يجسد لنا « العرق » وهو ينبض حتى لا نتوه عنه ، حين يقيم فينا ويباعد بيننا وبين الاحساس بنبضه ، شحم او دهن .

● ان حياة غسان الادبية منذ بدايتها حتى الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين من صباح ٧٢/٧/٨ لم تكن الا تكريسا امينا وتعبيرا مجسدا لمبدا الالتزام الصادق بقضيته . لم يكن اديبا وجد قضية ، لكنه كان قضية وجدت اديبا ، وكذلك لم تجيء اعماله مجرد « ادب » بل خلايا حية تبدو كأنها منتزعة من جسم به حمى .

واستطاع بموهبته الخصبة ودابه في التجريب مع الشكل والصياغة والعصر ان يجعلنا نلمس نعنه مدخلا يبدأ مرحلة جديدة من مراحل الادب الفلسطيني بعد الاحتلال . مرحلة جديدة نضج فيها التعبير عن المأساة والقضية ، متطورا من الخطابة المسطحة التي تعكس زعقا وفراغا ، وادراكا انفعاليا مرتجلا لابعاد وتصورات ما حدث ، الى الكشف والعمق لبث : الوجه الشعبي لانسان فلسطين ـ في ظل واقع الاحتلال والغربة ـ هذا : « العرق الحي » بكل بساطته وشاعريته وفكاهته وصلابته ومعجزة بقائه رغم المرارة الضاربة في حلقه .

حقق غسان هذا وبلغ فيه ذروته بروايتي « رجال في الشمس » و « ما تبقى لكم » .

وبعد حزيران ١٩٦٧ ازدادت ضربات قلبه تلاحقا ، وتهشمت مسلمات كثيرة وكانت المراجعة للمشاريع والاساليب القديمة شيئا فرض ضرورته وتمثل كنسجة في الشكل الفني الذي خرج به كتابه « عن الرجال والبنادق » عام ١٩٦٨ ، والذي اختار غسان ان يسميه : لوحات .

اول قطعة بالكتاب بعنوان : « مدخل » تدعونا منذ الكلمة الاولى للتحوط بطقس شحنة العصبية والغيظ الذي تلفه السخرية والتململ :

« انظر الى الناس واتساءل : ايمكن ان تكون هذه هي وجوهنا حقا ! كيف استطعنا ان ننظفها بهذه السرعة من الوحل الذي خربته حزيران فوقها ! »

وتكاد ترى تردده في ان يدفع بالكتاب الى المطبعة ! تردده في جدوى ان يضيف بعد : مزيدا من القول .

لكنه مع ذلك اضاف بعد كتابه « عن الرجال والبنادق » ، « ام سعد » ورواية « عائد الى حيفا » التي يقول في نهايتها على لسان بطلها سعيد : « اتعرفين ما هو الوطن يا صفية ! الوطن هو الا يحدث هذا كله » ■

صافي ناز كاظم
ـ القاهرة

١٩٧٢/٧/٩

ابتسامة

غسان

هل هذا غسان؟ النهر الساري في قوة
صيحات قوة
الزند الساهر ، والقلم الشاعر ، والراية في وهج الالوان ؟

هل هذا غسان ؟
الراس هنا ... والزندان
في كل مكان ..
والاشلاء تنادي ، تكتب ، نغمات بحقد واخوة ؟

★ ★ ★

كلا ! غسان في سيرة ملحمة مطمورة
في اعماق الوجدان العربي والصيحات
الصغورة صارخة ، مشعلة كمنارة
في اعلى بيت في عكا .
في اقوى جذع من بيارات جنين
منقوش اسمك في جدول اسماء رفاق
كتبوا في « الاحراش »
كل اساطير الرشاش

★ ★ ★

في الساحات الهازجة طويلا من تصفيق
المصورين
في الساحات ، لم تقصفها وحشية صهيون
كذراعي نخلة ، لم تقصفها وحشية صهيون
ولوائب زيتونة
حفظت موال الاجداد
كي ترويه الاحفاد
لبناء صروح المستقبل .
سيكون المستقبل
سيكون الشهداء يكون
وكما شاء الشهداء يكون
قطرة زيت تشعل شمسا من دمعة ونقاط
دماء رسمت طريق العودة .

يا قلما انبت قلعة
من خطوات النار وترنيم الاجمل
في قيثاره شعب مات على درب المنفى
وغذاء الحنظل وهدير جموع والوف الوف
ثم انبعث زنادا والمعول
زارت المدافع فيه ضراوات المنجل
يا قلما ضاءت فيه اماني المستقبل
و « مريضا » ضجت فيه ثانية الا للابقى
عافية لم تسفح
والاجمل .

★ ★ ★

يا نقطه ماء
انعكست فيها كل سماء العرب المقهورين
تجري في كل ضمير تحت الشمس السوداء
نهرا يروي شجر العودة وغصون الاحفاد
انهض سارية فوق عبق الاسوار
في القدس وفي عكا وعلى منديل الام
وكوفيات الاجداد
ابدا ينسج ما شاء لنا حق الارض
وهمهمة الاطفال
بدأت ملحمتك الحلوة يا غسان
ينهيها . من ينهيها ؟
ـ الام الاجيال ضمير الثورة والانسان . ■
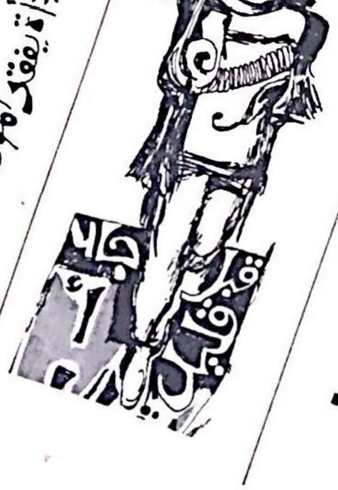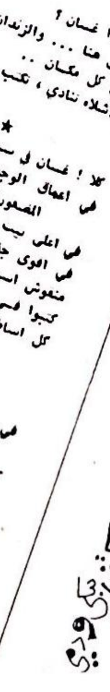
بقلم : محمد عياني